الدكتور إحسان عباس وحكايات إهداء كتاب: دراسة لعتبات النص

الدكتورة مالكية بلقاسم*

الملخص

ينطلق هذا البحث من فرضيتين هما :

1- أن ما كتبه الدكتور إحسان عباس (تأليفاً، تحقيقاً، ترجمة، شعراً، سيرة ذاتية) هو قناع يخفي معاناة صاحبه، على الرغم من محاولة الظهور بصفة الباحث الموضوعي المتفرغ بكامله للعلم، والزاهد في الحياة السياسية .

2- أن الكتابة عند الدكتور إحسان عباس هي تعويض عن الوطن المفقود فلسطين.

وللتحقق من صحة الفرضيتين عمل البحث على محورين :

المحور الأول : هو ضبط المفاهيم الأساسية في مجال الإهداء، وإهداء الكتب خاصة.

المحور الثاني : تحليل مكونات الإهداء الذي وضعه الدكتور إحسان عباس لكتابه عن عبد الحميد الكاتب وما تبقى من رسائله، وذلك انطلاقاً من تصور الإهداء عملية تواصل:

المهدى : إحسان عباس

المهدى لها : وداد القاضي

الهدية : كتاب

الرسالة : نص الإهداء

* قسم اللغة العربية وآدابها – جامعة ورقلة - الجزائر

ينشغل القارئ العابر بالملامح الكبرى عن التفاصيل، تقف الأحكام المسبقة حاجزاً من دون النظر إلى الأشياء، ويحول الكسل والإسراع في إنجاز الأعمال دون الوصول إلى أعماق الظواهر، هذه السلبيات كلها تجتمع في كثير مما كتب عن الدكتور إحسان عباس، فمن جهة هناك التسابق للكتابة عنه، وتكوين صورة مثالية عنه من جهة أخرى، هذه الصورة التي تخرجه إلى الناس في هيئة ناسك متعبد، ساكن صومعة البحث، زاهداً في الدنيا، مترفعاً عن متاعها، يصرف الليل مع النهار، والشباب مع الشيخوخة في البحث والكتابة، لكن هل طرح السؤال: لماذا يزهد الإنسان ويترهبن؟. وهل يستطيع الإنسان أن يزهد حقاً ويترهبن؟. لأن لكل سلوك دوافعه التي يعرفها صاحب السلوك أو يجهلها، كما أن الابتعاد عن الدنيا، والزهد في متاعها، لا يعني الانقطاع عنها، وإنَّما يعني شكلاً من أشكال التعبير عن العلاقة مع هذه الدنيا، بل العمل على اختراع نموذج لها، قد يكون مطابقاً أو معاكساً، لكنه في الأخير هو جزء من جدل الحياة، وركن من أركان الوجود.

إن هذا البحث ينطلق من فرضية-سيعمل جاهداً لتبين درجة صحتها وحدود صدقها-هي أن إحسان عباس في إبداعاته كلّها -كتابةً وترجمة وتحقيقاً،علماً وأدباً، نثراً وشعراً –يسعى إلى تعويض الوطن المفقود فلسطين، وأنه يخفي خلف أقنعة الباحث والعالم والموضوعية نفساً جريحة، تعاني الأمرين، جراح الغربة المزدوجة: الغربة عن الوطن الأم فلسطين، والغربة بين الأهل داخل الوطن الكبير الذي يمثله الوطن العربي الذي لم يكن الحضن الذي يستطيع أن يرتمي فيه، أو السكن الذي يلقى فيه بعض ما يحمله من أوجاع وأثقال، فراح إحسان عباس يحرق العمر قنديلاً يسهر في ضوئه لكتابة أوجاعه بلغة مبطنة، ظاهرها فيه السكينة والوقار والدقة، و باطنها اضطرابات وأحزان وانكسارات، يحاول إحسان عباس أن يتظاهر أمامها بالتجلد والشموخ.

إن إثبات هذه الفرضية يقتضي دراسة أعمال إحسان عباس، وهذا ما لا يستطيع هذا البحث القيام به، ولو من باب الكلام العام، والتحليل السريع، بل سيعمل على اتخاذ نموذج من كتابات إحسان عباس يتمثل في نص إهداء لكتاب الذي يمثل صفحة من آلاف الصفحات التي كتبها إحسان عباس، وهذا النص سيكون العنصر الذي نختبر من خلاله الفرضية السابقة، والذي ستكون نتيجة البحث فيه: إمَّا دافعاً لمواصلة البحث، أو التوقف عنه، إذا أظهر لنا عكس ما افترضناه.

ولتحقيق هذا كلّه. قسمنا البحث إلى جزئين هما:

جزء أول :لضبط المفاهيم المتعلقة بالإهداء ضبطاً موجزاً .

جزء ثانٍ : لتحليل نص الإهداء؛ ذلك من خلال العناصر الآتية :

1- طرفا الإهداء

2- قناة الإهداء

3-رسالة الإهداء

لتنتهي في الختام إلى النتائج التي تحققت من خلال البحث:

الجزء الأول:

يحدد معجم مقاييس اللغة لمادة (هـ –د –ي) معنيين هما: "أحدهما التقدم للإرشاد والآخر بعثه لطف"[1] فإذا بحثنا تحت كل معنى من هذين المعنيين الكبيرين وجدنا معاني جزئية كثيرة.[2] والجامع بين هذين المعنيين الفرعيين هو عملية الاتصال

1 معجم مقاييس اللغة : أبو الحسين أحمد بن زكريا –تحقيق و ضبط : عبد السلام محمد هارون-دار الفكر د.ت، د.ط مادة (هـ.د.ي)

2 ينظر لسان العرب :ابن منظور.دار صادر –بيروت .ط1 .2000-مادة (هـ. د. ي).

بين طرفين، يقوم أحدهما بتقديم شيء للطرف الثاني، سواء أكان هذا الشيء معنوياً رمزنا (الهداية)، أو مادياً (الهدية)، و نحن هنا سنركز على النوع الثاني .

تشمل الهدية والهبة دائرة واسعة من النشاط الإنساني،ومن المجالات التي تشملها العلاقات السياسية سواء الداخلية منها التي تجري بين أعضاء البلد الواحد، أو الدولة الواحدة. كما أنها تتجاوز هذه الحدود الضيقة لتشمل العلاقات الدولية التي تقوم بين الدول والحكومات، وهي في هذا كلّه تحمل دلالات كثيرة، وتسعى إلى تحقيق أغراض متعددة، من إظهار للولاء أو طلب الصلح، أو إظهار الاحترام، أو الاحتقار[3] وهي في ذلك كلّه تعدُّ من الأركان الأساسية التي يهتم بما الحاكم أو المسؤول، ذلك "أن الهدايا لسان مهد بها ولغته في التعبير عما في نفسه تجاه المرسل إليه. فقد قال بعض الحكماء ثلاثة تدل على ثلاث: الهدية على المهدي، والكتاب على الكاتب، والرسول على المرسل"[(4)] وهذه العناصر الثلاثة تعدُّ من أساسيات بناء الدولة، وخاصة في العصور القديمة.

ونخلص ممَّا سبق إلى أن الهدية والإهداء، لغة ضمن الأنواع اللغوية المختلفة التي يستعملها الإنسان[5]، وهي قد تجمع داخلها أكثر من لغة حين تترافق الأشياء مع الرسائل المكتوبة، فتعمل كل لغة على تكميل اللغة الأخرى، والعمل معاً من أجل إيصال رسائل صاحب الهدية على أحسن وجه وأبلغ تأثير في المرسل إليه، وهذا ما سنحلله في الجزء الثاني من البحث حين التعرض لإهداء إحسان عباس لكتابه.

3 ينظر: الهدايا والتحف زمن سلاطين المماليك البحرية 684ه-784ه- 1250م-1382م.د. محاسن محمد الوقاد.حوليات كلية الآداب- عين شمس – مصر .م28. ع2. 2000 ص162 .

4 المرجع السابق، ص222.

5 ينظر: المرجع السابق، 223.

أمَّا فيما يخص إهداء الكتب فسنركز على الدراسة الرائدة للناقد الفرنسي جيرار جينات gerard genette، وذلك في كتابه عتبات seuils، ينطلق الباحث من التفريق بين معنيين لإهداء الكتب هما: إهداء الكتاب إلى شخص ما إهداء يداً بيد، وهذه عملية كانت تجري في التراث العربي من خلال تسليم المؤلف لنسخة كتابه المخطوطة إلى الشخص الذي ألف من أجله، سواء بطلب منه أو برغبة من الكاتب للتقرب منه، وهذا الجانب لا يهمنا هنا لأنه لا ينطبق على الكتاب الذي ندرسه هنا، أمَّا المعنى الثاني للإهداء فهو ما يكتبه المؤلف على كتابه ذاكراً المتلقى الذي من أجله وضع هذا الكتاب[6] ويعبّر عن هذه العملية بعبارة هي: fair hommage d'un livere

وهذه العبارة في الفرنسية تحمل عدة دلالات منها: إظهار الولاء والاحترام تجاه شخص أو قيمة أو تجاه الله سبحانه وتعالى[7]، ويكون الإهداء من حيث المكان الذي يشغله داخل الكتاب في الصفحة التالية لصفحة العنوان بصفة عامة، مع وجود استثناءات لهذه القاعدة[8]، أمَّا من حيث زمن ظهور الإهداء فهو في الأصل يرتبط بالطبعة الأولى الأصلية للكتاب، من دون أن ينفي إمكانية استدراك المؤلف للإهداء في الطبعات اللاحقة[9] أمَّا صاحب الإهداء فهو في الأصل المؤلف لكن للمترجم أو المحقق أو المشرف على جمع النصوص أن يقوم بدوره بالإهداء[10] أمَّا المتلقي فيمكن الإهداء إلى شخص أو جماعة واقعية أو مثالية أو إلى كائنات من نسق آخر مثل: الأفكار والقيم والأحداث. [11]

فإذا ما عدنا إلى الأشخاص وجدنا أن هذا الصنف ينقسم إلى قسمين هما:

6 SEE.SEVILS.GERERD GENETTE .COLLECTION. POETIAUE.SEVIL.1987.

7 ينظر: المنهل قاموس فرنسي عربي، د.سهيل إدريس دار الآداب بيروت، 2003، ص618.

8 SEE.SEVILS.OP.CIT.P118.

9SEE.OP.CIT.P119.

10 SEE.OP.CIT.P121.

11SEE.OP.CIT.P110.

أ-أشخاص خواص للواهب تربطه بهم علاقات خاصة داخل العائلة أو داخل جماعة العمل، أو الصداقة، وهم في الغالب غير معروفين للجمهور.

ب-أشخاص عموميون يعرفهم الجمهور، ويرتبط بهم المؤلف بعلاقة سياسية، أو ثقافية... [12]

أمَّا الوظيفة التي يحققها الإهداء، فإنه يعكس لنا العلاقة الخالصة أو المتكلفة التي تقوم بين المؤلف والأشخاص أو الجماعات أو الكائنات الأخرى. [13]

الجزء الثاني:

طرفا الإهداء :

1-يعدُّ إحسان عباس(1920-2003) إحدى الشخصيات ذات الحضور المزدوج، هذه الازدواجية التي تقوم على خطين متوازيين في حياة إحسان عباس، حياة الظاهر التي تظهره إنساناً نذر حياته كلها للعلم، لكن من دون أن ندرك أن هذا التفرغ التام للعلم يخفي داخله أسرار كثيرة تحتاج إلى الكشف عنها، إن بعض الإشارات التي يقدمها إحسان عباس نفسه تحيلنا إلى هذه الحياة السرية الداخلية، التي حاول إحسان عباس جاهداً جعلها تبتعد عن الأضواء كلّها، فقد جاءت هذه الإشارات حين أخذ يتكلم عن كتابة سيرته الذاتية محيلاً كلامه على الكاتب المغربي محمد شكري، فيقول:"الخبز الحافي" للقاص المغربي محمد شكري سيرة جريئة جداً، ولا يستطيع أن يكتبها إلا محمد شكري لأنه متأثر بالكتاب الغربيين الذين لا يتورعون عن قول أي شيء دون أن يحجبوا أي نوع من الحقائق، وهذه القدرة على الاعتراف غير موجودة في وطننا العربي، لأن المجتمع لا يزال غير قادر على تقبل هذه الصراحة المتناهية، محمد شكري افتتح فناً جديداً في السيرة لهذه الجرأة؛ لأنه يعترف بكل ما

12 SEE.OP.CIT.P123
13 SEE.OP.CIT.P126.

فعله في حياته دون أن يتهيب من رد فعل الناس أو ماذا سيقولون"[14] لذلك فإن إحسان عباس يعترف أنه حين يتكلم عن نفسه فإنه لا يقدم إلا "نصف الحقيقة"[15] أمَّا النصف الثاني منها فإنه يحتفظ به لنفسه، ويحتاج الباحث للكشف عنه إلى العمل جاهداً في قراءة سيرته الذاتية، وحواراته، ومقدمات كتبه، وغيرها من النصوص التي أنتجها، إن إحسان عباس في كثير من الأحيان يتحدث من خلال الآخرين، سواء محققاً أو مترجماً أو مؤلفاً، إن إحالته على محمد شكري من دون غيره من كتاب السيرة العربية يفتح باباً واسعاً للبحث، ويطرح سؤالاً كبيراً، ماذا يوجد في سيرة محمد شكري؟ إن إحسان عباس يشير إلى الجرأة، فما هذه الجرأة؟ وماذا يمنع هذه الجرأة عن إحسان عباس، إن هذه الأسئلة كلها تحتاج إلى إجابة طويلة لا يتسع لها هذا البحث، وإن كان سيكشف عن بعض جوانبها.

إن إحسان عباس في كلامه السابق على كتاب " الخبز الحافي" أحال على صفة في هذا الكتاب، ألا وهي الجرأة، وهي الصفة التي يعلن إحسان عباس أنَّه لا يملكها، وإن كانت الجرأة تحمل عدة دلالات: وذلك بالنسبة إلى الموضوع الذي لا نملك الجرأة نحوه، فإننا هنا لن نتتبع الموضوعات كلّها التي كان إحسان عباس لا يملك الجرأة تجاهها، بل نكتفي ببعضها التي تخدم تحليلنا في هذا البحث.

لعل أهم الصفات التي تمنع الجرأة عن إحسان عباس، الحياء الذي يشكل صفة عامة له، وخاصة في مواجهته للمرأة، وبخاصة إعلانه للحب[16] وقد نتج عن ذلك كله "ميل إحسان عباس إلى الزهد والقناعة والابتعاد عن المناصب الإدارية، إذ

14 حوارات إحسان عباس: جمع وتحرير :د.يوسف بكار، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ط1، 2004، ص109.

15 المرجع السابق: ص ص 110-111.

16 ينظر: السيرة الذاتية في الأدب العربي: فدوى طوقان، وجبرا إبراهيم جبرا وإحسان عباس نموذجاً، تهاني عبد الفتاح شاكر، المؤسسة العربية للدراسات والنشر بيروت، ط1، 2002، ص ص 321-322.

كان يعتقد أن توليه المناصب الإدارية في بلد غير بلده يعدُّ انتهازية، وهو يستحي أن يراه الله انتهازياً[17] ومع هذا الحياء كان هناك الهدوء والتعقل في مواجهة الحياة، وتقبل امتحاناتها المختلفة في الدراسة والزواج وفي العمل والغربة أيضاً[18] وقد ساعده ذلك ليكون متفتحاً على المذاهب والاتجاهات كلّها، فهو يتحدث عن طلبته بقوله:"وكان هؤلاء الطلبة مختلفين جداً في انتماءاتهم الحزبية، فمنهم من ينتمي إلى حزب الأمة، ومنهم من ينتمي إلى الحزب الاتحادي، ومنهم من كان ينتمي إلى الحزب الشيوعي ومنهم من كان من الإخوان المسلمين، كنت أدربهم على الحوار المفتوح...وحين يشتد الحوار بينهم، أتدخل بلطف وأهدئهم، وألقى على مسامعهم كلام المعري:

إنما هذه المذاهب أسباب لجذب الدنيا إلى الرؤساء"[19]

إن هذا التفتح وهذا الارتقاء الفكري والنفسي والأخلاقي فوق الخلافات والمذاهب المتنازعة أكسب إحسان عباس شفافية مكنته من قراءة "البشر مثلما يقرأ الكتب"[20] ومن ثمة الأخذ بيدهم ومواساتهم في أزماتهم على الرغم من أنه لا يكاد يجد من يواسيه في محنه، وخاصة تلك المحن التي تقبع في داخله ولا تجد لها مخرجاً إلى العالم ليراها الناس، إنه هنا يشبه الطبيب الذي يعالج مرضاه دون أن يجد هو من يعالجه. [21]

17 المرجع السابق: نفسه.

18 ينظر: المرجع السابق، ص321.

19 العلمانية والممانعة الإسلامية، محاورات في النهضة والحداثة، على العميم، دار الساقي، ط1، 1999، ص ص 303-304.

20 إحسان عباس صورة شخصية: محمد شاهين، مجلة الكرمل ع78، شتاء 2004، ص142.

21 ينظر: السيرة الذاتية في الأدب العربي، مرجع سابق، ص325.

2-أمَّا وداد القاضي (ولدت1943)، فهي واحدة من أعلام الدراسات العربية المعروفين عبّر العالم، وقد توج عملها في البحث والتحقيق بحصولها على جائزة الملك فيصل مناصفة مع الدكتورة عائشة عبد الرحمن(1912-1998) [22] ونحن هنا سنقدم صورة وداد القاضي من خلال ما قاله عنها إحسان عباس، وهذه الصورة تعكس الإعجاب والاحترام الكبيرين اللذين يكنهما إحسان عباس لوداد القاضي، سواء على المستوى الإنساني، أو على المستوى العلمي.

فمن الناحية الإنسانية ركز إحسان عباس على الظروف الاستثنائية والصعبة التي عاشتها وداد القاضي، يقول إحسان عباس: "وداد من عائلة بيروتية سنية، وجدها حسن القاضي، كان يعمل قاضياً، أبوها –للأسف- كان معوقاً لا ينطق ولا يسمع ولا يرى، فعاشت ترعاه رعاية مخلصة، على الرغم من انشغالها الكامل بالعلم، أكبرت فيها هذه وأكبرت فيها هذا التحدي لكل المعوقات، التي يمكن أن تقف في طريق مستقبلها العلمي"[23].

إن هذه الشهادة تعكس لنا جوانب من نظرة إحسان عباس ليس فقط لوداد القاضي، بل للإنسان بكامله؛ إنه يظهر هنا تعلقه بالشخصية الإنسانية التي تتحدى الصعوبات وتنتصر عليها، هذه الشخصية التي لا تنكسر أمام المعوقات والحواجز التي تعترضها مهما كانت هذه الأخيرة قوية، ومتعددة وهذا ما تعكسه السيرة الذاتية لإحسان عباس التي هي في نهايتها سلسلة من التحديات، لعل أكبرها الحياة في الغربة التي ستقاسمه وداد القاضي تجربتها، لكن في مكان آخر من العالم، أي الولايات المتحدة الأمريكية.

22 ينظر: وداد القاضي وإحياء التراث النثري العربي، أمين بنه: مجلة المجال، ع278، جوان 1994.
23 العلمانية الممانعة الإسلامية، مرجع سابق، ص333.

كما أن الصفة الثانية في شخصية وداد القاضي تكمن في التفرغ للعلم، إنها نوع من الرهبنة والاعتكاف، حيث يعمل الإنسان على توجيه كل حياته، وكل قدراته إلى طلب العلم، وخدمته، معرضا عن كل مفاتن الدنيا ومغرياتها المادية والمعنوية، وهذا ما توفر في حياة إحسان عباس، وتجسد كذلك في تلميذته وداد القاضي.

والصفة الثالث هي الترابط الأسري، والتمسك بتلك العلاقة الإنسانية التي تربط أفراد العائلة وخاصة حين يكون بعض أفراد هذه العائلة في حاجة إلى رعاية خاصة، إن التضحية من أجل الآخر، إنها الصفة المقدسة عند إحسان عباس والتي من خلالها يسترجع صورة أبيه حيث: "إن والد إحسان عباس هو مثال الأب العربي الذي يجوع ليشبع أبناؤه ويلبس الملابس القديمة ليشتري لهم الزي المدرسي وهو يعطف على أبنائه عطفاً كبيراً"[24]

وبالرجوع إلى المستوى العلمي نجده الجانب الأكثر بروزا، والأكثر شهرة في حياة وداد القاضي، ويتكون هذا الجانب من عناصر هي: المسيرة العلمية، والمميزات العلمية. أمَّا المسيرة العلمية فبدايتها بدخول دائرة اللغة العربية، ولا تنتهي عند منصب الأستاذية بأكبر الجامعات الأمريكية. يقول إحسان عباس:" دخلت وداد القاضي دائرة اللغة العربية بمحض رغبتها واختيارها وكان في مقدورها أن تدخل المدرسة الطبية أو كلية الهندسة ولكنها آثرت التوجه إلى الدراسات الإنسانية"[25].

فمن البداية كانت الدكتورة وداد تعرف قصدها، وتأخذ قرارها لسلوك الطريق الذي يوصل إليه، على الرغم من الإغراءات التي تفرضها التخصصات الأخرى على طالبة متفوقة، تلك التخصصات التي تحقق المجد والثروة، لكنها ترى

24 السيرة الذاتية في الأدب العربي، مرجع سابق، ص327.

25 غربة الراعي سيرة ذاتية: إحسان عباس، دار الشروق، عمان، ط1، الإصدار الأول، 1996، ص244.

الثروة حيث يكون حبها للدراسات الأدبية والإنسانية، لأن هذه الدراسات قد لا تعطي مجداً اجتماعياً كبيراً، ولا تحمل ثروة مادية ذات قيمة، لكنها تعطي صاحبتها الرضا، وهو المجد الحقيقي والثروة الفعلية التي تحقق الاتفاق مع الذات والعيش في دائرة من الوفاق التام بين الرغبة والواقع، وإلى جانب هذه الإرادة والتصميم على الاختيار الحر للوجهة هناك مميزات أخرى لوداد القاضي، كما يتحدث عنها إحسان عباس، منها قدرتها على الاستيعاب الكبير لتقنيات البحث وطرائق العمل داخل المجال العلمي[26] وهذه الخاصة عملت على تكوينها، والدفع بها إلى التطور والتقدم في طرائق البحث والإبداع.

قناة الإهداء:

- والآن وقد بلغنا مدار البحث ومركزه، نجد أن الكتاب المُهْدَى، هو القناة والرسالة في الوقت نفسه، وأن هذا الوجود المزدوج للكتاب يحدث في العقل والوجدان سيلاً من الأسئلة والانفعالات، ذلك أنَّنا في زحمة الحياة والأعمال، قد لا ننتبه إلى كثير من الأشياء التي نمر بها، فقد ألفناها، إنَّنا حين نهدي لا ننتبه للفعل في حد ذاته بقدر ما ننتبه للمناسبة، للهدية، أو لردة فعل المهدي له، لكن الفعل في حد ذاته لا يلتفت إليه أحد، إنَّنا لا نفرق في الهدية بين إهداء حميمي ينجز في دائرة ضيقة جداً، وبين إهداء يعلن على أوسع نطاق، عن إهداء نابع من القلب، وعن إهداء نخضع فيه لقواعد المجاملة، ولقوانين المجتمع، إن هذه المواقف كلّها تثير أفكاراً، وتفتح سبلاً للبحث والكتابة، قد تتجاوز حدود هذه الدراسة، وتقتضي بحثاً مستفيضاً، أمَّا في سياق هذا البحث فإن ما يهمنا هو إهداء عمل إبداعي وفي مجال عام معلن عليه.

إن سياق البحث سيدفعنا إلى الحديث عن إهداء كتاب أبدعه صاحبه (جمع وتوثيق وتقديم لما تبقى من رسائل عبد الحميد الكاتب)، وهنا يمكننا طرح أسئلة هي:

26 ينظر: المرجع السابق، ص245.

حين نهدي كتاباً أبدعناه بطريقة أو أخرى، ما هذا الكتاب؟ هل هو مجموعة الأوراق الموجودة بين غلافين؟ والذي قد نطبع منه آلاف النسخ؟ أم هو الجهد الذي بذلناه في إبداع هذا الكتاب؟ أم هل هو محتوى الكتاب ورسائله المستترة؟ ثُمَّ هل هو تلك الحكايات الجانبية التي تقع للمبدع في أثناء رحلة إنجاز كتابه؟ إن الكتاب هو هذه العناصر كلها، وربما أكثر من ذلك كله.

سنباشر تحليل هذه الأبعاد مع التذكير أن نسبة المعالجة تختلف من عنصر إلى آخر، وذلك بحسب ما توافر من معلومات، وبحسب ما قاله إحسان عباس نفسه عن كتابه:

أ-يظهر إحسان عباس عدم رضاه عن الكتاب المنجز، لأنه جاء على غير ما كان يتصوره، ذلك أن الكتاب المنشود كان يتكون من جزأين، جزء يخص جمع ما بقي من نصوص عبد الحميد الكاتب وتوثيقها، وجزء يتتبع تاريخ النثر العربي حتى عهد عبد الحميد الكاتب، وكان الغرض من ذلك وعلى حد ما كتب إحسان عباس هو "تأليف كتاب معتمد يتخذ حجر الأساس في تاريخ النثر العربي"[27] وهو هنا يتكلم على الاتفاق المسبق بينه وبين وداد القاضي لوضع هذا الكتاب.

ب-وهذا الأمر يحيلنا إلى الجهد المبذول، والجهد الذي كان سيبذل لإخراج هذا الكتاب، أمَّا الجهد الذي بذل فهو جمع الرسائل والنصوص المتبقية من تراث عبد الحميد الكاتب وتوثيقها وتقديمها، وهو جهد كبير جمع مشارق الوطن العربي مغاربه، وكل من عمل في مجال التحقيق وتتبع المخطوطات العربية الموزعة بين مكتبات عديدة في أنحاء العالم، يعلم صعوبة ذلك، وإن كان هذا العمل بالنسبة إلى إحسان عباس لا يشكل تجربة جديدة، بل هو ذو خبرة، ومراس كبيرين في التحقيق. ويبقى

27 عبد الحميد بن يحي الكاتب وما تبقى من رسائله سالم أبي العلاء: دراسة وإعداد: الدكتور إحسان عباس، دار الشروق، عمان، ط1، 1988، ص9.

الجانب الثاني من الكتاب أي التاريخ لبدايات النثر العربي، وهو عمل عبّر عنه إحسان عباس بقوله: "وحين فاتحت الدكتورة وداد في الأمر مستأنفاً تبيّن لي أن دراستها للنثر قبل عبد الحميد وحدها-وهي فصل من ثلاثة فصول- لن تتم بعد التأكد من الاستقرار في الموطن الجديد في أقل من ثلاث سنوات أو أربع، وهذا يعني أن المشاركة في المشروع لا تقف دونها عثرات التباعد وحده، بل تقف دونها القدرة على توفير الجهد الصالح للإنجاز في مدة معقولة"[28]

وقد طرحت وداد القاضي هذه المسألة في مقال لها بعنوان"نحو منهج سليم في قضية موثوقية الرسائل العربية الإسلامية المبكرة"وسنقتبس هنا خلاصة هذا المقال على طولها، لأنها تعكس الجهد المفترض بذله، ليس في هذه المسألة بل في المسائل كلّها المتعلقة بدراسة التراث وتوثيقه وكتابة تاريخه، كتبت وداد القاضي تقول: "خلاصة ما أريد أن أقوله أن العمل في الرسائل الأموية المبكرة على المستوى العلمي لا يزال في خطواته الأولى، وفي حين أن من الصعب القطع بصحة الرسائل في صورتها التي وصلتنا عليها في المرحلة السابقة على خلافة معاوية، فإن تحقيق نصوصها في المرحلة التالية لذلك ممكن، وهو أكثر إمكاناً في المرحلة التالية على إصلاحات عبد الملك وحتى آخر أيام الدولة الأموية، والمنهج المطلوب في دراسة هذه الرسائل هو تمحيص نصوصها المروية تمحيصاً دقيقاً، ودراسة ألفاظها وتعابيرها وتراكيبها بالتفصيل ومقارنة هذه الألفاظ والتعابير والتراكيب القرآنية من ناحية بنصوص البرديات (والنقوش والنقود أحياناً) من ناحية أخرى، وبنصوص الرسائل الأخرى التي يظن أنها معاصرة لها من ناحية ثالثة، ثم وضع هذه الرسائل في إطارها التاريخي إدارياً وسياسياً وعقيدياً، ورغم أن استعمال هذا المنهج يستغرق وقتاً طويلاً، ولا يخلو العمل فيه من الإحباط، فإنَّه مهمة جليلة لابدَّ من القيام بها... على أن العمل

28 المرجع السابق، نفسه.

الضخم يمكننا أن ننطلق إلى معالجة أنواع أصعب من نماذج النثر العربي المبكر تلك القائمة على الرواية الشفوية"[29] إن هذا النص يظهر دونما الحاجة إلى أي شرح عظمة التصور الذي انطلق منه كل من إحسان عباس ووداد القاضي لإنجاز الكتاب.

ج-لكن دون هذا الأمل الكبير والطموح الضخم عوائق قد لا يتوقعها الباحث، وهو ما سميناه بالحكايات الهامشية، وهي حكايات قد لا يطلع عليها القارئ إلا حين يكشف عنها الطرف الآخر الذي عاشها، وهذا ما فعله إحسان عباس، لأن في هذا الكشف إثراءً للعمل يجعله أكثر إنسانية وأكثر ارتباطاً بصاحبه حين لا يصبح مجرد عمل أكاديمي روتيني ينجزه الفرد ثم ينتقل إلى غيره، إنَّه جزء من الحياة لا ينفصل عنها ولا يمكنه أن يختفي بعد الانتهاء منه، إنَّه جزء من الذاكرة التي تبقى حتى بعد رحيل صاحبها.

لعل مركز هذه الحكايات كلها هو هذا التشتت الذي حدث لإحسان عباس ووداد القاضي، وشمل المكان والفكر والوجدان. وقد تولد هذا الشتات كله عن الحرب التي عصفت بلبنان، فتشرد الباحثان مكانياً، فلم يعد هنالك حيز جغرافي للعمل وللقاء، وقد زاد هذا التشرد عمقاً الابتعاد عن المكتبة الخاصة لكل من إحسان عباس ووداد القاضي، ولعل هذا الجانب هو الأكثر مأساوية، لأنَّه يحرم الباحث من الأجواء المكانية الخاصة للإبداع، ومن الفضاء الحيوي الذي يتحقق داخله وجود الباحث، ويكتمل عمله من خلال العلاقات الحميمية والموضوعية التي تربطه بعناصر مكتبته، فهو يعرف كل عنوان، وكل صفحة، ويحتفظ في هذا الفضاء بأفكاره وتأملاته كلّها، والتعليقات كلّها، وكل ما يخطر للباحث كتابته من هوامش النصوص، أو على القصاصات المتفرقة، وقد انعكس هذا كله على الجوانب الفكرية والوجدانية، فلم يعد هناك مجال للبحث أو

29 نحو منهج سليم في قضية موثوقية الرسائل الإسلامية المبكرة: الدكتورة وداد القاضي، ضمن كتاب: في قراءة النص الديني، تأليف جماعي، الدار التونسية للنشر، تونس، ط2، 1990، ص ص 160- 162.

التفكير، كتب إحسان عباس يقول:"وجدنا نفسينا مشردين في بيروت نفسها، وكل منا بعيد عن مكتبته يتوجس خيفة من الأخطار المحدقة، ينام مروعاً ويصحو مروعاً، ولا يستطيع تركيز فكره في دراسة جادة، ثم وجدنا نفسينا مرة أخرى مشردين من بيروت بعد استقرار في موطن جديد، كأنه إنما يستأنف حياة جديدة، ولكن دون أن تكون لديه مكتبته الأثيرة، ودون أن يكون من حوله الجو الذي ألفه واطمأنت نفسه إليه"[30]

د-إنَّ وراء هذه الأحداث، وخلف هذه الآلام والأوجاع جرحاً غائراً يحمله إحسان عباس منذ البدايات الأولى لحياته، إنه حين يكتب: "والآن إنَّ ساعة العودة إلى البداية قد جاءت"[31] إن في هذه الجملة ثلاث مفردات أساسية هي: الآن، العودة، البداية. لماذا يعلن إحسان عباس عن اللحظة الزمنية الحاضرة بهذه الصرامة والحدة التي تحملها كلمة "الآن"؟ أنَّه أفاق من غفوة السرد وسحر الحكاية التي كان قد نثرها في الصفحات السابقة؟ هل أدركه الصباح الذي كان يمنع شهرزاد من الحكاية؟ هل كشف ضوء النهار أمام إحسان عباس حقيقة أنَّه تحول إلى إنسان ضعيف. وأنَّ تلك الرهبنة التي نسجت حوله لم تعد تقوى على إخفاء القلب النابض بالحياة في أحوالها وأبعادها المختلفة، إنها لحظة العودة إلى البداية، ولندرك هنا ما لكلمة "عودة" من وقع في نفس إحسان عباس الفلسطيني الذي يحلم ويعتقد بضرورة العودة يوماً ما إلى فلسطين، أليست فلسطين هي البداية؟ إن البداية هنا تأخذ صيغة الجمع، حيث هنا بداية الكتاب، وبداية الغربة، وبداية الإنسان، ومن هنا ستنطلق رحلة إحسان عباس في العودة إلى البداية.

30 عبد الحميد بن يحي وما تبقى من رسائله، مرجع سابق، نفسه.

31 المرجع السابق، ص160.

البداية الأولى:

يقول إحسان عباس :"حين وجدت نفسي مرة أخرى أعيد وقفة الإنسان الـذي حمل الأمانة لأنَّه كان ظلوماً جهولاً"[32] من هو هذا الإنسان؟ هل هـو آدم الأول؟ أم الجنس البشري؟ أو هو إحسان عباس نفسه فرداً أو جنساً؟ إنَّه هذه العناصر كلها، إنه هذا الامتداد الدامي عبّر الزمن، من آدم (الماضي) إلى إحسان عباس (الحاضر) إلـى الإنسانية جمعاء (المستقبل). وما هي هذه الأمانة التي حملها هذا الإنسان؟ إنها رسالته في الوجود، أن يكون خليفة الله في أرضـه، وكيـف يمكـن لهـذه الأخيـرة القيـام والاستمرار؟ إنها تقوم وتستمر من خلال الالتزام الذي يحمله كل فـرد مـن الجـنس البشري أمام الله، بأن يكون عبداً له، يحتكم إلى سننه، ويسير وفقاً لأوامره، أن يكـون هذا الإنسان ذا وجود إيجابي في الأرض يعمرها، ويعمل على أن يجعل حياته كلها في سبيل هذه الرسالة السامية التي تحمله على أن يكون أخاً لكل إنسان حامياً لكـل نفـس حية، وأن يكون عادلاً ورافضاً للظلم.

البداية الثانية:

لكن إحسان عباس وجد نفسه ضحية لظلم الإنسان وجهلـه، الـذي يـصنع أحزان الكائنات كلها، هو الذي غرب عن بلده وتشرد في أقطار الدنيا حاملاً جراحـه في صمت مطلق؛ لأن الكلام لا يزيد هذه الجراح إلا عمقاً، ولعـل جـراح التجاهـل والتنكر الذي تعرض له إحسان عباس، والإنسان الفلـسطيني بعامـة تفـوق حـدود الوصف، وحدود اللغة، ومع ذلك فإن إحسان عباس لا يجد عزاء لهذه الأحـزان، ولا تسلية لهذا الاغتراب إلا عند أفراد من البشر عاشوا التجربة نفـسها، وكتبـوا عنهـا، فكانت هي الدواء الذي يحاول الكاتب علاج نفسه به، بقول إحسان عبـاس:"وجـدتني أعيش المسافة التي تربط-أو تفصل-بين محرومين، محروم مشرقي وهو أبو حيـان

32 المرجع السابق، نفسه.

الذي عشت على قراءة الإشارات الإلهية له-في هذه المرحلة من حياتي-صباح مساء... ومحروم مغربي هو البلوي"[33] لقد اعتكف إحسان عباس في قمة مأساته على القراءة فكانت منفذه ومسلك هروبه من غربته، إنَّه يذكر هنا مقاطع من النصوص التي كان يرددها صباح مساء في طقوس علاجية، إنَّه يقدّمها لنا لتكون ذخيرة لكل محروم حاضر أو قادم من رحم المستقبل. لقد كان إحسان عباس جسر العبور بين أبي حيان التوحيدي / الوحدة. والبلوي/ البلوى.

البداية الثالثة:

يقول إحسان عباس:"كأنَّي أربط بداية النثر العربي بقمته العليا"[34] إن هذه الجملة التي خطها إحسان عباس تعليقاً واستفهاماً ما عقب حديثه عن أبي حيان التوحيدي وكيف استحضره في مقدمة تكتب لتقديم نصوص لعبد الحميد الكاتب؟ وكيف أن هذا الاستحضار جعل إحسان عباس يكتشف رابطاً خفياً بين بداية النثر العربي وقمته؟ وبين إحسان عباس هذا الاكتشاف بقوله:"وسرعان ما أدركت أن عبد الحميد الحقيقي الذي أحببته لم يكن ممتهن وظيفة وحسب، وإنما كان إنساناً عريق النسبة إلى المشاعر الإنسانية الصادقة"[35] هكذا تصبح الكتابة فعلاً وجودياً أساسياً، يستحضر كل ما في الإنسان من أبعاد نفسية ووجدانية وأخلاقية لذلك فإن المثل على حد تعبير إحسان عباس يضرب بعبد الحميد الكاتب"بالكتابة والوفاء"[36]

إنَّ عبد الحميد الكاتب حين يمارس الكتابة يحقق وجوداً مزدوجاً، ظاهره هو هذه العلامات البصرية التي يخطها على صفحات الأوراق، وما تحمله من أفكار،

33 المرجع السابق، نفسه.
34 المرجع السابق، ص16.
35 المرجع السابق، ص17.
36 المرجع السابق، ص50.

وباطنه هو هذا الوفاء الذي يمثل "سرّ شخصيته"[37] ولعل هذا ما جعل إحسان عباس يعلن عن حبه لعبد الحميد الكاتب الذي وجد عنده الأمل.

كان إحسان عباس وهو يكتب صفحاته عن عبد الحميد الكاتب في حال انهيار تام، يقول:"كنت أسمع الانهيارات النفسية في داخلي، كأنها انهيار المبنى، والحضارة، والروح الإنسانية والعلاقات الجميلة"[38] لكن هذه الانهيارات الشاملة التي أحسها إحسان عباس داخله، ومن حوله، لم تمنع شعاع الأمل من الدخول إلى أعماقه، هذا الأمل الذي استعاده إحسان عباس من القراءة، ومن النصوص التي كتبت لتكون منبعاً للشفاء من أمراض الوجود الإنساني.

الإهداء:

عند هذا الحد من الرؤية المتعلقة بالكتاب، هل يمكن إتمام المشروع، أو التخلي عنه؟ هل يجب إخراج الكتاب في صورته المثالية المفترضة؟ أم الاكتفاء بالحد الأدنى الذي يحفظ رسالة الكتاب العظيمة؟ هنا يثور جدل أول في هذا المشروع الذي لم يعد في الإمكان إتمامه على وجهه الأول فأصبحت هناك سبل أخرى لإتمامه منها:

1-ما اقترحه إحسان عباس على وداد القاضي بأن تأخذ النصوص المجموعة وتبني عليها دراسة تاريخية وفنية، تكون بديلاً عن المقدمة التاريخية التي تتناول النثر الفني وبداياته، وهذا ما رفضته وداد القاضي. [39]

2-ما اقترحته وداد القاضي على إحسان عباس، بأن يقدم للنصوص بدراسة موجزة تكون بديلاً عن المقدمة التاريخية؛ لأن المهم هنا هو نصوص عبد الحميد[40]

37 المرجع السابق، نفسه.

38 المرجع السابق، ص18.

39 ينظر: المرجع السابق، ص10.

وقد وافق إحسان عباس على هذا الاقتراح، لكن ربط هذه الموافقة بشرط قبول وداد القاضي إهداء العمل لها، وهنا انفجر الجدل الأكبر حول الإهداء، بين رفض وتوكيد على القبول.

أولاً: أمَّا الرفض فقد جاء من طرف وداد القاضي "وكانت أقوى حجة ساقتها في هذا السبيل أن ليس في المعتاد بين الناس أن يهدي الأستاذ عملاً من أعماله إلى تلميذه"[41]

إن هذا الرفض قد أسس على العادة، وهي سلطة اجتماعية لها وزنها في تشكيل التصورات والسلوكات، وفي مجال بحثنا هذا فإن العادة هي التي تحدد العلاقة بين الأستاذ والتلميذ، إذْ تبقى هذه العلاقة قائمة على درجة واحدة هي: تبعية التلميذ للأستاذ، فلا يتصور أن يقدم الأستاذ عمله لتلميذه، بل العكس هو الذي يجب أن يحصل، على اعتبار أن الإهداء هنا، هو رد لفضل، وإقرار بالدين الذي يحمله التلميذ مدى حياته تجاه أستاذه، بينما الأستاذ لا يدين لهذا التلميذ بأي شيء، حتى يحمله ذلك على إهداء عمل من أعماله له.

ثانياً: لكن وجهة نظر إحسان عباس تذهب عكس هذا الصورة والسلوك، وهو في رفضه هذا بنى موقفه على مجموعة من الحجج هي:

أ-أن علاقة التلميذة ترتبط بالزمن، فهي في حال إحسان عباس ووداد القاضي حال ماضيه، أي أن التلمذة انتهت في الماضي، وحل محلها نمط من العلاقات هي: الزمالة في العمل والصداقة، وهي علاقات أصبحت أقوى وأدوم؛ لأنها تمثل الحاضر والمستقبل[42]

40 ينظر: المرجع السابق، نفسه.

41 المرجع السابق، نفسه.

42 ينظر: المرجع السابق، نفسه.

ب-تقديم الحجة التاريخية: أي وجود حالات تاريخية تخالف العادة التي تعود الناس عليها، وتتمثل هذه الحال في ابن حزم الذي لم يمنع كونه أستاذاً للحميدي أن يعجب بكتاب له ويرويه عنه[43]

ج-الجهد الذي بذلته وداد القاضي في إنجاز الكتاب من حيث التصور والتنفيذ، يقول إحسان عباس:"أنا مدين بالتنبيه إلى هذه الرسالة ومصدريها: الكامل والموافقيات للدكتورة وداد القاضي، فلها الشكر، وقد تم ذلك بعد اكتمال طباعة الرسائل جميعاً فلهذا جعلتها ملحقة لسائر الرسائل، معتمداً على الكامل وحده"[44]

مرجعية الإهداء:

يحيل نص إهداء إحسان عباس على شخصية أدبية وتاريخية هي: "أبو العلاء المعري"، وعلاقة إحسان عباس بأبي العلاء المعري تقوم ضمن شبكة متعددة الأبعاد والمستويات:

أ-المستوى الأول: علاقة البحث:

قدم إحسان عباس مجموعة من البحوث عن أبي العلاء المعري، تجمع بين التحقيق والدراسة، ويمكن سرد هذه الأعمال كما يأتي:

1- رسالة في التعزية: لأبي العلاء المعري، دار الفكر العربي، القاهرة 1950.
2- رسائل أبي العلاء المعري، ج1، دار الشروق، بيروت، 1982.
3- الإبداع الفني في رسالة الغفران (مجلة الأديب، بيروت، ع8 سنة 1955)

43 ينظر: المرجع السابق، نفسه.
44 المرجع السابق، ص320 الهامش.

4-رسالتان على غرار الغفران والتوابع والزوابع، مجلة اللسان العربي، الرباط، ع 4 سنة 1966.

5- بين أبي العلاء والوزير المغربي، مجلة الفكر العربي ع25-1982.

ب-المستوى الثاني: علاقة القراءة:

يقدم لنا إحسان عباس في مقدمة تحقيقه لرسائل أبي العلاء المعري استراتيجية القراءة عنده، تقوم القراءة عند إحسان عباس على احتساب عامل الزمن، فالأعمال الكبرى تحتاج إلى الوقت الطويل، والسنوات الكثيرة للكشف عن أسرارها، فالدقة هي أول الشروط التي يجب توافرها للقراءة الناجحة والجادة التي تسعى إلى الكشف والإثراء،والقراءة عند إحسان عباس تنتهي إلى تحقيق المتعة التي تعمل على إشراك القارئ له فيها، هنا يجد إحسان عباس نفسه مجبراً على عدم التدخل في توجيه القارئ؛ لأنَّ أي توجيه قد يحدث تشويهاً في ذوق القارئ أو في ذهنه، ممَّا قد يقف دون حصول القارئ على المتعة المنشودة، يقول إحسان عباس:"ما أزال أصر على أن الذي جذبني إلى تحقيق نثر أبي العلاء وشعره هو رغبتي في أن يشركني القراء متعة القراءة، فأمَّا الاستنتاج فإنه رهين التصور والظروف وما يجد من الكشوف"[45]

لكن إحسان عباس يخالف هذا الشرط الذي ألزم نفسه به حين تقديم الرسائل فهو يقول:"وسيجد القارئ أنَّني تجاوزت هذه الرغبة بعض الشيء حيث حللت المراسلات التي دارت بين أبي العلاء والداعي الفاطمي أبي نصر هبة الله المؤيد في الدين، وما ذلك إلا لأصنع نموذجاً لما تستطع بلوغه القراءة الدقيقة التي تعتمد الاستنتاج من داخل النص أكثر من الروايات المحيطة به"[46] إن هذا النص يكشف

45 رسائل أبي العلاء المعري: تحقيق الدكتور إحسان عباس، دار الشروق، القاهرة، بيروت، ط1، 1982، ج1، ص5.

46 المرجع السابق، نفسه.

بوضوح ما يضمره إحسان عباس في نفسه، وما يحيط مفهوم الاستنتاج والقراءة عنده من دلالات، فهما سلاحان حادان في الكشف والموجهة والمقاومة، فالسؤل المطـــروح هنا: لماذا هذه الرسائل بذاتها؟ التي خصها إحسان عباس بالاستنتاج؟

إن هذه الرسائل تكشف عن موازين القوة في صراع السلطة مـــع المثقـــف، فالداعي الفاطمي يمثل قوة السلطة وجبروتها في مواجهة مثقف ضعيف بفعل الـــزمن، وبفعل العزلة، وكيف تعمل هذه السلطة على قهر هذا المثقف وإرهابه، ويتضح ذلـــك في الوصف الإجمالي الذي قدمه إحسان عباس للـــداعي الفـــاطمي. يقـــول إحـــسان عباس:"لم يكن المؤيد في ذروة السلطة حين أخذ يكاتب أبا العلاء، ولكنـــه كـــان فـــي طريقه إليها، لقد كان رغم هدف إبعاده عن مصر يقوم بحركة لو قدر لها بلوغ غايتها لكان فيها القضاء على الدولة العباسية... مناظراً ممدود الباعين للعراك. يعد نيل مئات الدنانير تقشفاً، طموحاً مستعلن الرغبة في الوصول إلى أسمى المناصـــب الدينيـــة"[47] لهذا نجد إحسان عباس أمام هذا الصراع ينحاز إلى أبي العلاء المعري، لـــيس لأنـــه الطرف الأضعف فحسب، بل لأنه الطرف المشابه.

ج-المستوى الثالث: علاقة التعاطف

تمثل هذه العلاقة الغاية التي انتهى إليها إحسان عباس في علاقته مـــع أبـــي العلاء المعري، وتتجلى هذه العلاقة في الصورة التي رسمها إحـــسان عبـــاس لأبـــي العلاء المعري إذْ يقول: "وإذن فمنذ البداية لا يقف الرجلان على صعيد واحد في هـــذا الحوار، فأحدهما – وهو شيخ يدلف نحو القبر- يسأل بعد خمسة وأربعين عامـــاً مـــن امتناعه عن أكل اللحوم والألبان، لم فعل ذلك؟ إذ لو كان ما ابتداه نزوة فإن العادة قـــد جرت به حتى صار طبيعة ولو كان ذلك الامتناع في سن الصبا قائمـــاً علـــى فكـــرة مستقرة في النفس منذ البداية ثم اهتزت بعد مرور السنين لأصبح الرجوع عنه غيـــر

47 المرجع السابق، ص84.

ممكن، وهذا الشيخ منزوٍ عن الناس وراء الجدران الطينية والجدران الأسلوبية، ضعيف عاجز يكره المناظرة ولا يألفها، مقل معسر راض بإقلاله وعسره، متواضع ينفر من الشهرة وهي تسعى إليه، ضعيف الإيمان بالإنسان وما يدعيه من فضائل، حكم عليه العمى بأن يكون مؤمناً بالقدر مهما يتشبث عقله بغير ذلك"[48]

نص الإهداء :

والآن نصل إلى نص الإهداء الذي نعرضه كما يأتي:

الإهداء

إلى الدكتورة وداد القاضي:

تحية ود ما الفرات وماؤه بأعذب منها وهو أزرق سلسال[1]

وتحية تقدير لإسهامها المتميز في العلم والأدب.

وتحية عرفان لأياد جمة سلفت

1-البيت للمعري في شروح السقط: 3: 1224 من قصيدة مطلعها:

مغاني اللوى من شخصك اليوم أطلال

وفي النوم معنى من خيالك محلال

وهو يصف التحية بالعذوبة، وقد شبهها في صفاتها بماء الفرات".

أ-إن أول ما يمكن ملاحظته هنا هو: أن الإهداء يتكون من عنصرين هما: المتن والهامش، فالمتن جمع نص الإهداء، أمَّا الهامش فقد أورد فيه إحسان عباس توثيق بيت أبي العلاء المعري، وشرحاً موجزاً له، وهذا البناء الذي أخذه نص

48 المرجع السابق، ص85.

الإهداء يعكس شخصية صاحبه الباحث المحقق، فنحن نراه يضبط البيت ضبطاً دقيقاً، يمنع وقوع القارئ في خطأ القراءة، كما وثق البيت وحدد مصدره، وعمل على شرحه ليساعد المتلقي على الفهم الصحيح للبيت.

ب-إن الإهداء جاء في شكل تحية أخذت مستويات هي:

تحية
- ود ← التعاطف مع وداد القاضي.
- تقدير←إحاطة بجهودها.
- عرفان←رد الجميل.

فإذا ما حاولنا تحليل هذه التحيات نجد ما يأتي:

1-التحية الأولى: تأتي من خلال بيت شعر لأبي العلاء المعري، وهذا البيت مأخوذ من قصيدة قالها أبو العلاء المعري في بغداد[49]، وهي تحمل أشواق أبي العلاء المعري إلى موطنه، ووصفاً دقيقاً لأحواله المادية والنفسية في بغداد، وشعوره الحاد بالغربة، وما يحمله هذا الشعور، وما تحدثه من أوجاع وأحزان وهموم، وقد ربطت التحية في البيت بالود، وهو المحبة التي تعكس شعور إحسان عباس بالمشاركة الوجدانية والواقعية، بينه وبين وداد القاضي التي وقع لها ما وقع لإحسان عباس من تشرد واغتراب، لذا جاءت هذه التحية على لسان أبي العلاء المعري، لتكون نبعاً للحياة يعوض وداد القاضي بعضاً مما أصابها، فالإنسان يعيش من خلال مشاركة الآخرين له، وفي محنه يحتاج إلى هذه الوقفة الوجدانية التي تعطي نفسه الحياة كما يعطي الماء الحياة للجسد، وحياة النفس هنا أقوى من حياة الجسد، لذلك كانت تحية الود أفضل من الماء الحلو الزلال الصافي.

49 ينظر: سقط الزند، أبو العلاء المعري دار صادر، بيروت، 1992، ص228 وما بعدها.

2-**أمَّا التحية الثانية** فهي تكشف عن دعم كبير لوداد القاضي من خلال تقدير جهودها في العلم والأدب، وهذا التقدير القصد منه هو تذكير الآخرين بما قدمته وداد القاضي، لأنَّ من طبع الناس إنكار الفضل، وتجاهل العمل، ونسيان الأيادي المقدمة، خاصة حين تحيط بالفرد ظروف قاهرة، قد تنزع منه سلطانه، وتذهب بما له، وتجعله ضعيفاً، فيجد بعض الناس الفرصة للانتقام والتشفي، وغير ذلك من السلوك الناقص، لذا فهذه التحية جاءت لتنزل وداد القاضي منزلتها، وتكشف عن قيمتها في زمن هي في أمس الحاجة إليه.

3-**أمَّا التحية الثالثة** فهي تحية عرفان، والعرفان هو"...السكون والطمأنينة...لأن من أنكر شيئاً توحش منه ونبا عنه"[50] وكيف لا يسكن إحسان عباس إلى وداد القاضي، وقد قطعا معاً شطراً كبيراً من حياتهما، من بداية التلمذة إلى المشاركة والمزاملة، وفي هذه الرحلة كلّها تكونت شبكة من العلاقات العقلية والوجدانية والمصيرية، لذا فإحسان عباس حين يعلن عرفانه إنَّما هو يؤكد هذه العلاقة التي أصبح يفتقر لها في غربته الجديدة بعيداً هناك عن مصدر الإنس والراحة والسكون، وهنا لم يبقَ أمامه إلا هذا المعروف الذي قدمته وداد القاضي له، فكان التسلية والأمل في حياة أفضل قد يأتي بها الغد، فكان المعروف سكنه.

الخاتمة:

تفضي بنا التحاليل السابقة كلها إلى مجموعة من النتائج يمكننا حصرها فيما يأتي:

1-البحث في عتبات النص بحث ثري، وكفيل بالكشف عن عناصر كثيرة تدخل في إبداع النصوص، وفي الربط بينها وبين سياقاتها المختلفة.

50 معجم مقاييس اللغة، مرجع سابق، مادة (ع.ر.ف).

2- إهداء إحسان عباس لم يكن إهداءً عفوياً وعابراً، بل كان عملاً صادراً عن مجموعة من الدوافع والعلاقات المعقدة والمتشعبة التي تستحضر حياة إحسان عباس كلها.

3- كشف الإهداء أبعاداً كثيرة في شخصية إحسان عباس وحياته، تلغي كثيراً من الأحكام والصور التي نسجت حوله، لتظهره إنساناً حساساً متفاعلاً مع الحياة متأثراً بها ومعبّراً عنها، وجاعلاً من كتاباته بديلاً إيجابياً عن فقدان الوطن، وعن الغربة التي ابتلعت حياته كلها.

4- وعليه فإن الفرضية التي انطلقنا منها في بداية البحث ظهر لنا صدقها مما يحتم توسيع الدراسة إلى آفاق تشمل أعمال إحسان عباس كلها.

المصادر والمراجع

1- إحسان عباس صورة شخصية:محمد شاهين، مجلة الكرمل،عدد 78 شتاء 2004.

2- حوارات إحسان عباس:جمع و تحرير:د.يوسف بكار،المؤسسة العربية للدراسات و النشر. بيروت.ط1، 2004م.

3- رسائل أبي العلاء المعري: تحقيق الدكتور إحسان عباس، دارالشروق، القاهرة. بيروت.ط،1982م الجزء الأول.

4- سقط الزند: أبو العلاء المعري. دار صادر-بيروت.1992م.

5- السيرة الذاتية في الأدب العربي: فدوى طوقان وجبرا إبراهيم جبرا وإحسان عباس، نموذجا:تهاني عبد الفتاح شاكر. المؤسسة العربية للدراسات والنشر ط1. 2002م.

6- عبد الحميد بن يحي الكاتب وما تبقى من رسائله: دراسة وإعداد. الدكتور إحسان عباس. دار الشرق. عمان.ط1. 1988.

7- العلمانية والممانعة الإسلامية: محاورات في النهضة والحداثة: على الصميم. دار الساقي.ط1. 1999م.

8- غربة الراعي سيرة ذاتية: الدكتور إحسان عباس. دار الشروق-عمان، ط1. الإصدار الأول1996.

9- لسان العرب.ابن منظور. دار صادر.بيروت، ط1. 2000م.

10-معجم مقاييس اللغة: أبو الحسين أحمد بن زكريا. تحقيق عبد السلام محمد هارون. دار الفكر.د،ت.د،ط.

11-المنهل: قاموس فرنسي-عربي.د. سهيل إدريس، دار الآداب.بيروت.2003م.

12-نحو منهج سليم في قضية موثوقية الرسائل العربية الإسلامية المبكرة:الدكتورة وداد القاضي.ضمن كتاب: في قراءة النص الديني. تأليف جماعي –الدار التونسية للنشر-تونس. ط2. 1990م.

13-الهدايا والتحف زمن(سلاطين المماليك البحرية 684ه-784ه/1250م.1382م): الدكتورة محاسن محمد الوقاد. حوليات كلية الآداب جامعة عين شمس. مصر. المجلد الثامن والعشرين: عدد2. 2002م.

14-وداد القاضي وإحياء التراث النثري العربي: أمين بنه، مجلة المجال عدد278. جوان 1994.

15- Seuils :g.Genette – PoetiqueCollection- Poetique - Seuil 1987.

تاريخ ورود البحث إلى مجلة جامعة دمشق 2011/1/16